# أعلام وعلماء في حياة أبو القاسم سعد الله العلمية: منهجيته في دراسة الأعلام

# Scholars In the scientific life of Abu Al-Qasim Saad Allah: His methodology in the study of flags



| أ.د لونيسي براهيم<br>Prof.Lounici Brahim<br>nadiaferhat@lounicib@yahoo.fr | تاريخ حديث ومعاصر | جامعة الجيلالي ليابس- سيدي بلعباس - الجزائر |
|---|---|---|



DOI :

**ملخص**

لقد ادرك ابو القاسم سعد الله اهمية الترجمة للعلماء و الاعلام ، باعتبارها احدى الادوات الاساسية في عملية الكتابة التاريخية ، لان هؤلاء الاشخاص هم الفاعلون الاساسيون في الحراك السياسي و الاقتصادي والاجتماعي و الثقاقي لاي مجتمع من المجتمعات ، لهذا نجد ابو القاسم سعد الله قد اهتم كثيرا بهذه العملية ، حيث عرف بالعشرات من الاعلام و العلماء في شتى كتبه ، ولقد اتبع في ذلك منهجا خاصا به ، و هو ما سنبينه في هذه الدراسة .

**الكلمات المفتاحية :** المنهج: الاعلام و العلماء ؛ ابو القاسم سعد الله ؛ الحراك ؛ تاريخ الجزائر

**Abstract**

Abu al-Qasim Saadullah has realized the importance of translation for scholars as it is one of the primary tools in the process of historical writing, because these people are the main actors in the political, economic, social and cultural movement of any society, and for this we find Abu al-Qasim Saadullah much concerned with this. The process, where he was known by dozens of scientists and scholars in all his books, and he followed a method of his own, which is what we will show in this study.

**Keywords:** The curriculum; scholars; Abu al-Qasim Saadallah; the movement; the history of Algeria.

## مقدمة

إن عملية الكتابة والتعريف بالعلماء والأعلام والشخصيات المختلفة، تعد من الأدوات الأساسية في عملية البحث العلمي، وهذا انطلاقا من كون هؤلاء الأشخاص هم الفاعلون الأساسي ون في الحراك السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي لأي مجتمع من المجتمعات من الدول والأمم المختلفة، وبالتالي فان التعرف على حياة هؤلاء الأشخاص وتطوراتها المختلفة هي في الحقيقة تعد تعرفا على جزء هام من تاريخ الفترة



المؤلف المرسل: أ.د لونيسي براهيم البريد الإلكتروني: lounicib@yahoo.fr

التي عاش فيها الشخص المترجم له، وكذا فهم بعض أسرار تلك الفترة، والمرحلة التاريخية.

ويبدوا أن اهتمام أبو القاسم سعد الله بالترجمة للعديد من علماء الجزائر وشخصياتها السياسية والفكرية والثقافية تدخل في هذا المجال، أي التعرف أكثر على الحراك العام للتاريخ الجزائري، خلال العهدين العثماني والاستعماري وحتى فيما بعد العهد الاستعماري، وهذا في إطار"مشروع العمر" الذي عاش من أجله ووهب له نصف قرن من عمره، وهو "تاريخ الجزائر الثقافي" فمعظم الذين ترجم لهم الأستاذ أبو القاسم سعد الله لهم علاقة بشكل أو بآخر بهذا المشروع، بدءا من عبد الكريم الفقون مرورا بابن حمادوش وصولا إلى ابن العنابي والشاذلي القسنطيني انتهاء بنور الدين عبد القادر (1890-1982) الذي خصه بكتاب من الحجم الصغير يقع في حوالي 100 صفحة، صدر عن منشورات المجلس الإسلامي الأعلى بالجزائر سنة 2009، وغيرهم من العلماء والمفكرين والشخصيات السياسية التي ترجم لها هنا وهناك في العديد من كتبه وخاصة موسوعته الضخمة التي تعد بحق هرما يحق لكل جزائري أن يفتخر به "تاريخ الجزائر الثقافي" على امتداد أربعة قرون من تاريخ الجزائر بدءا من القرن السادس عشر وصولا إلى سنة 1962 والتي جاءت في عشرة أجزاء كاملة.

**منهجيته في دراسة الأعلام**

ونسجل هنا أن الأستاذ أبو القاسم سعد الله الذي أكثر من الكتابة عن علماء ومفكري الجزائر على امتداد قرونها الأربعة الأخيرة كان يسير في ذلك وفق منهج علمي واضح المعالم، وكان في كل ذلك أيضا تحركه بعض الجزئيات الصغيرة التي كانت تصادفه من حين لآخر فتدفعه إلى البحث والاستقصاء مثل ما حدث له مع الشاذلي القسنطيني فيقول في حديثه عن كيف بدء عملية البحث عن هذه الشخصية التي لم تكن قد دخلت حساباته ولكنه في نهاية المطاف وجد نفسه أمام كم هائل من المعلومات عن هذه الشخصية التي تعثر بها بالصدفة فكانت النتيجة إنتاج كتاب في أكثر من 100 صفحة عن القاضي الأديب الشاذلي القسنطيني سنة 1972، كتب في مقدمة الطبعة الأولى لهذا الكتاب "خلال صيف 1970 كنت أتصفح نسخة مخطوطة من كتاب (تحفة الزائر) فعثرت فيه على قصيدة في ورقة مطوية منفصلة تبدأ بهذه العبارة: (ومما كتبه

العالم الفاضل الشيخ محمد الشاذلي على لسان بلدتهم قسنطينة) في مدح الأمير عبد القادر والاستنجاد به ضد الفرنسيين(1)

فالسبب الرئيسي الذي دفعه إلى كتابة هذا الكتاب عن الشاذلي القسنطيني هي تلك القصيدة التي عثر عليها في كتاب (تحفة الزائر) حيث يقول إن تلك القصيدة استوقفته طويلا ودفعت به إلى التساؤل عن سر العلاقة الموجودة بين هذا الرجل والأمير عبد القادر فيقول: "لذلك نسختها وأعدت الورقة إلى المخطوط وعزمت على نشر القصيدة لما فيها من معلومات تاريخية، صلة الأمير بأهالي قسنطينة، وعلاقة الرجلين قبل امبواز، وموقف الشاذلي من المقاومة الوطنية، غير أن البحث عن ظروف القصيدة قادني إلى البحث عن صاحبها وهكذا تحول اهتمامي من الأمير عبد القادر –كان وقتها من ربيع وصيف 1970 بجمع المادة الخاصة بمقدمة ترجمته لكتاب حياة الأمير عبد القادر لتشرشل- موضوع القصيدة إلى الشاذلي القسنطيني، قائلها، وشرعت في التقاط كل خبر أجده عنه، وكانت الأخبار تقود بعضها إلى بعض، فالحديث عن الشاذلي قاد إلى صديقه بواسوني والحديث عن هذا أدى إلى اكتشاف مجموعة من (الرسائل) كتبها الشاذلي أو كتب عنه وقد وجدت نفسي أمام شخصية لم نكن نعرف عنها إلا القليل ..." والنتيجة كانت هذا الكتاب عن الشاذلي القسنطيني".

ويجب علينا هنا أن نتساءل عن طبيعة العلماء والشخصيات التي اهتم بها الأستاذ أبو القاسم سعد الله؟ إن الأستاذ سعد الله يجيبنا عن هذا السؤال في مقدمة الطبعة الأولى لكتابه عن الشاذلي القسنطيني التي كتبها بمدينة الجزائر يوم 26 أفريل 1972 "... أسئلة ظلت ملحة علي: هل الشاذلي يستحق كل هذا الجهد؟ ألم يكن موظفا عند الفرنسيين؟ ألم يكن مداحا لرجالهم ومعجبا بحضارتهم؟ أليس في الجزائر من هو أجدر منه بالدراسة؟ إن الشخص الجدير بالدراسة عندهم (الإنسان صاحب الموقف) سواء اتفقنا معه في موقفه أو اختلفنا، أما الإنسان الذي عاش بدون حقيقة فهو لا يستحق الإلغاء بل هو الذي أعدم نفسه بنفسه، والظاهر أن الشاذلي قد عاش عصر واتخذ فيه مواقف واضحة وعلى الباحث أن يدرس الشخص وعصره ومواقفه، ويترك بعد ذلك لكتاب السياسة والأخلاق يقيمونه ويحكمون عليه(2)

ويعود الأستاذ أبو القاسم سعد الله مرة أخرى إلى هذه القضية بشكل أكثر تعمقا في خاتمة كتابه عن الشاذلي القسنطيني ليكتب قائلا: "ولكن ما دور الشاذلي السياسي والاجتماعي، الأدبي والتاريخي، حتى يستحق منا هذه الدراسة؟ الواقع أنني طالما سألت نفسي هذا السؤال منذ بدأت أجمع المادة، ولم أستطع أن أجيب بإقناع حتى بعد أن انتهيت من الكتابة، وقد كنت أقول لنفسي لعل الرجل لا يستحق مني كل هذا الاهتمام، أليس في الجزائر من هو أعظم منه قيمة وأوسع شهرة؟ ولكن الذي كان يحفزني على المضي فيما بدأته هو إيماني بأن قيمة الأشخاص لا تقاس بالشهرة والأدوار الكثيرة المعاصرة، وكثيرا ما علمنا التاريخ أن مغموري اليوم قد يصبحون نجوم الغد، وأن مشهوري اليوم قد يصبحون غدا نسيا منسيا والشاذلي كان أشياء كثيرة في عصره كان عالما أديبا شاعرا، وكان قاضيا وناضر مدرسة لعبت دورا في تاريخ الحياة الثقافية، وكان رحاله اجتماعيا كثير الصلات والمعارف، وكان رفيق الأمير عبد القادر في الغربة وفي الأدب..." (3)

كما أن اختيار الأستاذ سعد الله للشخصيات والأعلام التي يرعب في دراستها وتحليل شخصياتها لم يكن اعتباطيا، بل من أجل تحقيق هدف مسطر مسبقا في ذهنه يبوح به في بعض الأحيان بشكل مباشر مثل ما فعله من وراء دراسته لشخصية عبد الكريم الفقون حيث كتب في مقدمة الكتاب الذي خصصه لهذه الشخصية تحت عنوان (شيخ الإسلام عبد الكريم الفقون–داعية السلفية-) حيث كتب يقول في الصفحة 7 من مقدمة الكتاب "... وعسى أن يكون ما قمنا به مفيدا للجيل العربي المسلم الذي يبحث الآن عن البدائل الذاتية في مواجهة مغريات الحضارات الأخرى، ولعلي لا أبوح سرا عندما أقول أن دافعي الأساسي من نشر حياة الفقون إنما هو خدمة الأجيال العربية الإسلامية الصاعدة التي ستجد فيها النموذج الصالح للإنسان المكافح من أجل دينه وحضارته وقيمه ضد الاستبداد والجهل والخرافة". وفي الكثير من الأحيان لا يقوم بالبوح بالأهداف الأساسية المرجو تحقيقها من وراء الترجمة لعلم من الأعلام أو لشخصية من الشخصيات بل نجده يبث تلك الأهداف بين سطور بحثه، والهدف من وراء ذلك حتى لا يظهر نفسه كرجل أخلاق أو معلم يسعى إلى تلقين قراءه بعض المبادئ السياسية، وكذا الأخلاق الرفيعة أو غيرها من الأهداف الأخرى بل يترك القارئ يستشفها لوحده.

كما أنه عمل في بعض الأحياء على تقديم جملة من المفاتيح حول بعض الشخصيات الوطنية للتعمق في فهمها، مفاتيح لنفتح بها أغوارها، ونفهم أسرارها، مثل ما فعله مثلا مع شخصية الأمير عبد القادر هذه الشخصية المتميزة في التاريخ الجزائري المعاصر عسكريا وسياسيا وثقافيا، والتي اهتم بها الأستاذ سعد الله اهتماما خاصا، بل وعايشها لأكثر من خمسين عاما.

وبشكل عام فان الأستاذ أبو القاسم سعد الله قد ترجم للعشرات من علماء الجزائر وشخصياتها بارزة كانت أو غير ذلك، ترجم لها إما في كتب مستقلة مثل ما فعله مع محمد بن العنابي أو ابن حمادوش الجزائري أو القاضي الأديب الشاذلي القسنطيني، أو ترجم لها ضمن كتابه الموسوعي (تاريخ الجزائر الثقافي) على امتداد الأجزاء العشرة، ولقد تراوحت ترجمته لهؤلاء في هذه الموسوعة حسب قيمة المترجم له فهناك من ترجم له في صفحتين أو أقل وهناك من ترجم له في أكثر من خمس صفحات، وحديث الأستاذ سعد الله عن هؤلاء في كتابه تاريخ الجزائر الثقافي كان أساسا مرتبطا بموضوع معين، وكان ملزما بالاختصار في ذلك، ولكن لو قمنا بجمع كل من ترجم لهم في هذه الموسوعة لنتج لدينا موسوعة حقيقية لأعلام الجزائر في الفترة ما بين القرنين 16 و20م.

إن الأستاذ سعد الله عايش كل هؤلاء العلماء لأكثر من ستة عقود من حياته كباحث ومؤرخ، بل والأكثر من ذلك نجد الأستاذ سعد الله عندما يكتب عن بعض هؤلاء العلماء وهذه الشخصيات كأنه عاش معها حقا ولم يعايشها داخل الكتب والمخطوطات والنصوص والوثائق، فيتتبع خطواتها خطوة خطوة بمحص آثارها تمحيصا دقيقا لاستخراج ما يفيد في فهم العالم من هؤلاء العلماء أو شخصية من هذه الشخصيات. وكان الأستاذ سعد الله يغوص في دواخل الشخصيات والأعلام المدروسة، وسبر أغوارها والبحث الدائم عن الجديد، وهو في ذلك ينطلق من مبدأ كان يؤمن به إيمانا راسخا وهو "يجب على المؤرخ في كتاباته أن يكون كالطبيب النفساني"، وهو المبدأ أو القاعدة التي كشفها لي في رسالة جاءتني منه من الولايات المتحدة الأمريكية بتاريخ 16 جانفي 1994" ابتعد عن الخطابية، واترك الأحداث تتحدث عن نفسها، أي لا تكن كالخطيب غير العارف يوم الجمعة يأمر وينهى، بل كن كالعالم أو الطبيب النفساني يذكر رأيه ولكن بالإيعاز والإيحاء لا تمشي في طريق مشى فيه مسافرون آخرون هذا مبدأ البحث الجيد: الاكتشاف، الجديد وبذلك تظهر الشخصية المتميزة".

وكان الأستاذ سعد الله في تناوله لكل هؤلاء العلماء والشخصيات حريصا جدا من أن يتناول أدوارها المختلفة من الحراك السياسي والاجتماعي والثقافي الجزائري خصوصا والعربي عموما إن كان لها دور في ذلك، وهذا انطلاقا من إيمان الأستاذ سعد الله الشديد من أن الجزائر ما كان لها أن تتحرك لوحدها داخل نطاقها الجغرافي الضيق لو لا بعدها العربي الإسلامي بحيزه الجغرافي الواسع، الذي أعطى للكثير من علماء الجزائر ومفكريها نطاقا جغرافيا واسعا للحراك فيه مثل الأمير عبد القادر ومحمد بن العنابي، والشيخ طاهر الجزائري رائد النهضة العلمية في بلاد الشام، وأبو يعلي الزواوي الذي ذهب إلى سورية سنة 1912 كموظف في القنصلية الفرنسية، ومحمد الخضر حسين الذي سيصبح شيخا على الأزهر في خمسينات القرن العشرين .. وغيرهم كثيرون.

**اختياره للأعلام بين الانتقائية و العشوائية**

إنّ أبرز سؤال ينبغي طرحه هنا هو: ما هي طبيعة الشخصيات التي اهتم الأستاذ أبو القاسم سعد الله بالترجمة لها؟ وهل كان يختار وينتقي هذه الشخصيات؟ أم أنه كان يقوم بذلك بشكل عشوائي واعتباطي دون وضع أهداف معينة في ذهنه عند الشروع في تحديد الشخص الذي يراد الترجمة له؟ لقد تعرضنا إلى الإجابة على جزء من هذه الأسئلة في الصفحات السابقة، وهذا من خلال ما كتبه الأستاذ أبو القاسم سعد الله بنفسه بشأن هذا الموضوع، إلا أننا نضيف هنا أن الأستاذ سعد الله في عملية الانتقاء والاختيار لم يكن يراع سوى الدور الأساسي الذي لعبه الشخص المراد بالترجمة في الحراك العام سواء كان سياسيا أو اجتماعيا، أوثقافيا دون النظر هل كان عميلا للاستعمار مثلا خلال الفترة الاستعمارية أي كان يسير في ظل المشروع الثقافي الاستعماري الفرنسي في الجزائر، أو كان وطنيا يحارب المشروع الاستعماري، فمثلا وجدناه يترجم لإسماعيل حامد في حوالي 9 صفحات في الجزء السادس من تاريخ الجزائر الثقافي من الصفحة 233 إلى 241 ويقول عنه أنه قام بمهمات للسلطات الفرنسية في المغرب الأقصى وإفريقيا، وكان من دعاة التقارب الجزائري الفرنسي والاندماج، ونوه بفوائد الاستيطان الفرنسي لما فيه من فوائد تعليمية للجزائريين فهو في نظر إسماعيل حامد ضروري للازدهار الاجتماعي، ويقول عنه الأستاذ سعد الله أنه كان يدعو إلى ضرورة تنكر الجزائري لماضيه وان يستلب من هويته ويذوب في هوية أجنبية عنه دون شعور منه بذاته.

كما ترجم أيضا لربيع الزناتي في الصفحات من 255 إلى 258 من الجزء السادس من تاريخ الجزائر الثقافي حيث يقول عنه أنه كان من المؤمنين المفرطين بالاندماج والمأخوذين بالتأثير الفرنسي حتى لم يعد يرى الجزائر من غير الإطار الفرنسي، وترجم للقاضي الحاج قدور الشريف الزهار في الجزء الرابع من تاريخ الجزائر الثقافي من الصفحة 492 إلى 495، ومن خلاله تحدث عن أسرة الزهار ككل التي كانت لها مكانة مرموقة في أوساط الجزائريين بدءا من الوالد أحمد الشريف الزهار الذي ناضل إلى جانب الأمير عبد القادر، فيقول عنها الأستاذ سعد الله إن أفراد هذه العائلة لم تستعمل نفوذها في أي مجال للدفاع عن قضية الدين الإسلامي سيما في ميدان القضاء الذي رأت أيدي الفرنسيين تنتهبه انتهابا، وقد رضيت بالمناصب المادية والأوسمة الشرفية والاعتبارات المعنوية التي تخصها هي وحدها "بينما لا نجد لها حسب علمنا تدخلا أو موقفا لصالح القضية الوطنية الكبيرة"، ويقول أيضا عن هذه الأسرة وغيرها من الأسر الجزائرية لم تول أي اهتماما بالقضية الوطنية" إن المجتمع الحق هو الذي يلعب فيه أمثال هؤلاء الأعيان دورهم في ترسيخ التقاليد الحميدة والقيم النضالية من أجل المحافظة على الذاتية الوطنية في وجهه كل الغزاة، فإذا تحول أعيان المجتمع إلى جماعة من الانتهازيين سهل على العدو افتراس كل المجتمع والقضاء عليه وعليهم أيضا".

ولكن مقابل هؤلاء الذين كانوا على علاقة وطيدة بالاستعمار الفرنسي وغيرهم كثيرون، ترجم الأستاذ سعد الله لعلماء ومثقفين كانوا على النقيض من هؤلاء مثل عمر بن قدور الجزائري الذي ترجم له في الجزء الخامس من تاريخ الجزائر الثقافي من الصفحة 276 إلى الصفحة 282 الذي يقول عنه أنه عرف بالقضية الجزائرية في الصحافة العربية والإسلامية، وإنه وقف ضد الاضطهاد الاستعماري ويقول عنه أيضا أنه دعا إلى الوحدة الإسلامية والفكرة القومية والتضامن الوطني في وقت مبكر كان فيه جيله ما يزال جاهلا بها أو داعيا إلى الاندماج مع المحتل.

وبشكل عام فان القارئ لما كتبه الأستاذ سعد الله في ترجمته لكل هؤلاء سيتوصل إلى نتيجة في غاية من الأهمية وهي ضرورة دراسة كل الشخصيات العلمية والثقافية والسياسية الجزائرية في العهد الفرنسي، سواء تلك التي تعاملت معه أو تلك التي وقفت ضده، بهدف التعرف أساسا على خصائص ومميزات الحركية الثقافية والفكرية التي عرفتها الجزائر مع امتداد قرن وثلث قرن من الوجود الاستعماري في

الجزائر، وكذا حتى يتسنى لنا أيضا فهم الحركية التاريخية التي حدثت بعد استرجاع السيادة الوطنية، لأن هذه الحركية الأخيرة في حقيقة أمرها ما هي إلا امتداد وتواصل لتلك الحركية التي عرفتها الجزائر في الفترة ما بين 1830 و1962 والحركية التي حدثت في هذه الفترة أيضا لها جذورها وخلفياتها في الحركة التي كانت سائدة قبل 1830.

**الاسس و التقنيات في دراسة الاعلام**

اعتمد الأستاذ أبو القاسم سعد الله في دراسته وتحليله للشخصيات التي تناولها في كتاباته المختلفة، والتي لعبت أدوار متنوعة في حركية التاريخ الجزائري الحديث والمعاصر، وكذا في تحليله للبيئات التي عاشوا فيها، وكذا للإنتاج الفكري الذي خلفوه، قلت اعتمد الأستاذ على عدة تقنيات أساسية، والتي يمكن لنا تحديدها على الشكل التالي.

**1. دراسة البيئة والظروف العامة**

قبل أن يعرف بأي عالم أو علم يقوم في البداية، أو حتى ضمن ثنايا الترجمة ذاتها باستعراض أهم ملامح البيئة التي عاش فيها المترجم له، وكذا ذكر أهم الظروف التاريخية والسياسية التي أحاطت بالفترة التي عاش فيها المترجم أيضا، وذلك بذكر مختلف الأحداث البارزة التي عاصرها صاحب الترجمة، وهذا إدراكا من الأستاذ أبو القاسم سعد الله ما للأحداث المعاشة من دور هام في تكوين الشخصية والتأثير فيها إما سلبا أو إيجابا، كما أن هذه الأحداث تدفع به إلى أن يسلك بعض السلوكات والأساليب والطرق في تعاملاته المختلفة، كما أنها تنعكس بشكل أو بآخر في كتابات وتآليف ومواقف وقرارات الإنسان، وليس هذا فقط بل يمكن من خلال التعرف على بعض الظروف التي عاش فيها الشخص المترجم له، وخاصة إن كان قد تحدث عنها في بعض تآليفه حتى ولو بالإشارة أن يتم تحديد الفترة الزمنية التي عاشها المترجم له، فمثلا يقول الأستاذ سعد الله عن محمد بن عمر العدواني عندما ترجم له في بداية كتابه (تاريخ العدواني) الذي قام الأستاذ بتحقيقه وإخراجه إلى النور "لا نعرف أن أحدا ترجم للشيخ العدواني، أو حاول أن يترجم، له فحياته مجهولة أو تكاد رغم شهرة تاريخه بين الناس ... فلا يعرف الناس أين ولد ولا أين وكيف عاش ولا أين توفي ولا متى، فكيف إذن سنترجم هنا لحياة العدواني (4).

ولكن رغم كل ذلك فان الأستاذ سعد الله وانطلاقا من كتاب تاريخ العدواني تمكن أن يترجم له في حوالي عشر صفحات من الصفحة 17 إلى الصفحة 25، ويقول بشأن العصر الذي عاش فيه، والفترة الزمنية التي عاش فيها من المولد إلى الوفاة حيث كتب يقول "وبناء على عدد من الملابسات والتواريخ فان العدواني قد عاش إلى حوالي منتصف القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) فقد تحدث عن حروب الشابية مع حكام تونس والجزائر وقبائل عديدة من تونس والجزائر، ... ويتحدث عن حوادث أخرى جرت كلها في القرن الحادي عشر ... مثل إشارته إلى الشيخ محمد بنونة المتوفى سنة 1038هـ وغير ذلك من العلاقات التي تدل على أن العدواني عاش حتى إدراك منتصف القرن الحادي عشر".

ويركز الأستاذ سعد الله على ذكر الخلفية العلمية للشخص المترجم له، أي هل هو من أسرة عريقة في العلم؟ وهل مارست الوظائف الرسمية؟ وعملت في الوظائف الفقهية أم لا؟ والهدف من وراء ذلك استخلاص بعض مميزات وملامح شخصية المترجم له.

ولقد وضح الأستاذ سعد الله أهمية التركيز على بيئة الشخص المترجم له وكذا الظروف العامة التي عاش فيها في التعرف على ملامح ومميزات الشخص المترجم له في خاتمة كتابه عن الشاذلي القسنطيني حيث كتب يقول: "نستطيع أن نخلص من هذه الدراسة بعدة نتائج، فقد رأينا الشاذلي عبارة عن نموذج لعصره المضطرب، فهو قد عاش أحداثا جساما مرت على وطنه، فهزته هزا، وغيرت كثيرا من معالمه القديمة، فمن حكم عثماني إلى حكم فرنسي، ومن ثقافة إسلامية عتيقة إلى ثقافة أوربية حية متحدية، وقد شهد المجتمع القسنطيني خلال ذلك تطورات في المفاهيم، وتغيرات في حظوظ الزعامة ونظام العائلات، والوظائف والتعليم، وكان الشاذلي يشاهد كل ذلك ويتأثر به، فتثقف ثقافة عتيقة، دينية وأدبية، على شيوخ فضلاء، وطمحت نفسه إلى المساهمة في حيات بلاده فالتفت يمنة ويسرة، فلم يجد سوى الفراغ في الناحية الشرقية، ... فالتفت نحو الغرب يستنجد الأمير عبد القادر لإنقاذ قسنطينة من براثن العدو ... وأعاد الشاذلي النظر في الحياة الاجتماعية والسياسية في قسنطينة فوجدها تستقر شيئا فشيئا أمام صخرة الأمر الواقع، ... وبدأ يسعى للحصول على وظيفة يعيش منها مع عياله حتى نالها على يد ضابط فرنسي...."(5)

## 2. من مخطوطة يصنع ترجمة لصاحبه

ولقد وجدناه يعمد إلى ذلك مع نموذجين اثنين على الأقل وهو صاحب مخطوط (تاريخ العدواني) وكذا (رسالة الغريب إلى الحبيب) لصاحبها أحمد أبو عصيدة البجائي، حيث كتب يقول بشأن الأول محمد عمر العدواني أنه كان مجهولا تماما فلم يقم أحد بالترجمة له أو حاول ذلك، وهذا رغم شهرة كتابه بين الناس خاصة في منطقة وادي سوف "لقد تعددت نسخ تاريخه في أيدي الناس ولم تتعد جوانب حياته" ولقد تمكن الأستاذ سعد الله أن يصنع ترجمة للعدواني من خلال كتابه المعروف بتاريخ العدواني واستخرج منه العديد من المعلومات الخاصة بهذا الشخص الذي كان صاحب ثقافة واسعة بالنسبة للعصر "فهو يحفظ القرآن الكريم ويستدل بآياته في عدة مناسبات، وهو يحفظ الأخبار ويروي الطرائف، وله رصيد لغوي قوي وأمثال شعبية كثيرة ... ومن المخطوط ما يدل على أنّ الشيخ العدواني كان قادري الطريقة ...."(6)

والشيء نفسه أيضا يمكن قوله عن أحمد أبو عصيدة البجائي وإن كان الوضع يختلف بين هذا ومحمد بن محمد بن عمر العدواني، حيث يقول الأستاذ سعد الله عنه في مقدمة التحقيق لرسالة الغريب إلى الحبيب: "عندما ينتهي القارئ من قراءة ما كتبناه عن (رسالة الغريب) قد يسأل نفسه: لماذا لم يترجم مؤرخو الرحلات والأدب لحياة مؤلفها أبي عصيدة البجائي في كتب التراجم والطبقات، ذلك أن البجائي لم يكن نكرة بين علماء وأدباء القرن التاسع الهجري (15م) لقد كان معروفا لبعض علماء تونس ومصر والحجاز والشام ... إننا لا نعتقد أن البجائي قد أهمله معاصروه، ولكننا نعتقد أن ترجمته قد تكون ضاعت فيما ضاع من التراث"(7)

ولكن مهما يكن من أمر: هل ترجم للبجائي أم لم يترجم له في القرون الماضية فان المهم عندنا هنا الآن هو أن الأستاذ سعد الله قد تمكن من أن يرسم لنا صورة لهذا العالم ولو كانت مختصرة من خلال هذه الرسالة وهي في الحقيقة صورة مأخوذة مما ذكره البجائي عن نفسه في هذه الرسالة "وهي حياة رجل هارب فيما يبدو من ظلم الإنسان إلى رحمة الله، ومن الشقاء البدني إلى السعادة الروحية، انه فارق الأهل والأوطان في ظروف لا نعرف عنها إلا القليل ورضي بجوار الرسول (ص) معوضا بذلك ما فقده من أهل ووطن" **(ص: 5 من رسالة الغريب إلى الحبيب)**.

وحاول الأستاذ سعد الله أن يحلل أسباب هذا الهروب من خلال الظروف العامة التي كانت سائدة في المنطقة خلال الفترة التي عاش فيها البجائي، وهنا نذكر مرة أخرى بأهمية دراسة البيئة والظروف التي عاش فيها أي شخص للحكم على بعض القضايا عند الأستاذ أبو القاسم سعد الله فمن خلال الظروف التي كانت سائدة في هذه المنطقة خلال القرن التاسع الهجري (15م) كتب يقول: لم يكن هروبه في نظرنا هروبا سياسيا كما فعل ابن خلدون، ولا إرضاء للطموح والمجد كما فعل أبو الفضل المشدالي، لقد كان هروب البجائي ابتعادا عن فوضى السياسة والمنافسات القبلية واضطراب الأحوال الاجتماعية في الدولة الحفصية التي كانت تحكم تونس والشرق الجزائري ...والظاهر أنه لم يجد راحته أيضا في مصر المملوكية.. ولذلك توجه في رحلتين متباعدتين إلى الحرمين الشريفين حيث جاور واستقر راضيا مطمئناّ.(8)

ولقد تمكن الأستاذ سعد الله من خلال قراءته للرسالة وتحقيقها من استخلاص الكثير من المعلومات الخاصة بحياة البجائي حيث كتب يقول "وكان في الإمكان أن لا نعرف عن البجائي شيئا لو لا الرسالة المطولة التي بعثها من المدينة المنورة إلى صديقه أبي الفضل المشدالي بالقاهرة ...".

إذن من خلال هذه الرسالة قدم لنا الأستاذ سعد الله ترجمة وافية نوعا ما لأبي عصيدة البجائي الذي عاش في القرن التاسع الهجري (15م) في حوالي اثنا عشرة صفحة من الصفحة 18 إلى الصفحة 30 إلى جانب تلك المعلومات التي ذكرها عنه في مقدمة الكتاب أيضا.

ونسجل هنا أيضا أن الأستاذ سعد الله قام بالتعريف بالكثير من علماء ومفكري الجزائر خلال العهد العثماني بهذا الأسلوب والشكل في كتابه تاريخ الجزائر الثقافي، الجزأين الأول والثاني.

### 3. الوقوف عند الجزئيات وتحليلها ودراستها:

كثيرا ما يتوقف الأستاذ أبو القاسم سعد الله عند بعض الجزئيات الصغيرة جدا من حياة بعض العلماء والشخصيات، والتي يمكن لبعض الباحثين والدارسين أن يمروا عليها مرورا سريعا، دون أن تلفت انتباههم، رغم أهميتها ودقتها في تحديد الكثير من ملامح شخصية ذلك العالم ولكن الأستاذ سعد الله يتوقف عندها مطولا مفككا لها، أو

تفجيرها على شكل جملة من الأسئلة، التي تفتح بدورها مجالا جديدا للبحث فيها وتحويلها إلى موضوعات صالحة للبحث والدراسة والتنقيب، فمثلا نجده يقف عند جملة وردت في (تاريخ عبد الحميد بك) والذي قام بتحقيقه وإخراجه إلى النور سنة 2000 تحت عنوان (أعيان من المشارقة والمغاربة)، وهذه الجملة عن محمد بن العنابي وتقول "ثم عزل نفسه منه –أي من منصب القضاء الذي كان يتولاه في مدينة الجزائر، وهو ابن ثماني عشرة سنة- لأمر مخالف للشرع" فيعلق الأستاذ سعد الله على هذه الجملة أن ابن العنابي قد استقال من وظيفته حتى لا يخالف حكم الشرع، وكان من الممكن للأستاذ سعد الله أن يقف هنا، والمعنى أصبح واضحا ومفهوما لدى القارئ إلا أنّنا نجده يقوم بالاعتماد على هذه الجملة القصيرة جدا ليستخلص إحدى المميزات والصفات التي من الممكن أن يكون ابن العنابي قد تحلى بها –وهذا إذا صح ما ورد في كتاب عبد الحميد بك- وهذه الصفة هي قوة الشخصية منذ أن كان صغيرا. ويوضح الأستاذ سعد الله الفكرة أكثر بقوله "ومن لنا بمثل هذا الموقف في عصر الخوف والطمع الذي أذل رقاب العلماء للحكام الظلمة" (9)

وكمثال آخر على هذا، تركيز الأستاذ سعد الله الشديد، وإشاراته المتكررة إلى أن ثقافة ابن العنابي ثقافة تقليدية حيث ذكر ذلك مرتين على الأقل عندما تناول بالحديث ثقافة هذا الأخير حيث كتب يقول "وتثقف ابن العنابي ثقافة واسعة بمفهوم عصره، ونحن نقول (بمفهوم عصره) لنمهد إلى القول بأن ثقافته التقليدية إذا ما حكمنا عليها من خلال كتابه المذكور -أي السعي المحمود في نظام الجنود- وغيره من آثاره المكتوبة مثل فتاويه وثبته المعروف (بثبت الجزائر) فهو حافظ وناقل أكثر منه مفكرا ومجتهدا "(10)

ويعود في هذه الفقرة ليذكرنا مرة أخرى بنوع الثقافة التي تلقاها ابن العنابي فيقول: "وهكذا نجد أن ثقافة ابن العنابي رغم أنها كانت تقليدية بمنطقنا اليوم، عميقة وواسعة، وقد تضافرت عدة عوامل على تعميقها وتوسيعها، وهي عوامل أسرية وشخصية، وهي نفس العوامل التي أهلته أيضا لأن يتبوأ الوظائف الرسمية في الدولة الجزائرية ويتولى القيام بمهمات صعبة في الأوقات الصعبة"(11)

وتركيز الأستاذ سعد الله على أن ثقافة ابن العنابي تقليدية، وتكراره لذلك، وتوضيحها بشكل مفصل تجعل القارئ لعنوان الكتاب يتساءل كيف لهذا الرجل

التقليدي الثقافة أن يكون (رائدا للتجديد الإسلامي)، إنها جزئية مهمة جدا أراد الأستاذ سعد الله تفكيكها بالتدريج، فإذا عدنا وقرأنا الفقرتين السابقتين بتعمق نجده قد تدرج بنا إلى مرحلة أخرى أكثر تطورا من الفكرة الواردة في الفقرة الأولى، حيث أضاف في الفقرة الثانية التي استشهدنا بها جملة واضحة يشير من خلالها إلى أن ثقافة ابن العنابي كانت تقليدية بمنطقنا اليوم، ولكن إذا تفحصناها جيدا –أي هذه الثقافة- فإننا سنجدها عميقة وواسعة، وهذا تمهيدا من الأستاذ سعد الله لإقناعنا كيف جعل من ابن العنابي (رائدا للتجديد الإسلامي)؟.

يقول الأستاذ سعد الله في هذا الشأن، أنه في الوقت الذي كان فيه السلطان العثماني محمود الثاني في نزاعه الطويل والخطير مع فرقة الانكشارية والذي انتهى بالقضاء عليها نهائيا سنة 1826، فإن محمد علي باشا حاكم مصر كان قد تجاوز هذه المرحلة بشوط كبير، وكان ابن العنابي إذ ذاك في مصر حيث رأى النتائج الايجابية من تقليد الأوربيين في انتصاراته الخارجية وتقدم نظامه في الداخل، "ومن ثمة وجد ابن العنابي الجو ملائما له في القاهرة ليكتب كتابه ويطرح أفكاره بحرية في قضية خطيرة عندئذ كالتي تناولها في كتابه، وهي جواز بل وجوب تعلم الحضارة من الأوربيين أو (الكفار كما يسميهم)" ويقول الأستاذ أبو القاسم سعد الله ابن العنابي دعا إلى ضرورة الاستفادة والتعلم من الأوربيين فيما اخترعوه من صنائع ونظم "لأن في ذلك مصلحة عليا للدين والأمة الإسلامية"(12).

وبلفتة ذكية جدا من الأستاذ سعد الله يشير من خلالها إلى بعض الظروف التي جعلت من ابن العنابي يتشبع بثقافة أخرى جديدة وغير تقليدية وذلك من خلال قوله أن ابن العنابي "لم يكن شخصية بسيطة ولا ضيق الأفق فقد عرفنا أنه من أسرة توارثت القضاء والإفتاء، وكانت قريبة من مقاليد السلطة وذوي نفوذ في البلاد، وكان هو شخصيا قد تولى إلى جانب وظائفه الدينية بعض المهمات السياسية، وكان قد شاهد أسطول بلاده يتحطم أمام الغزو الانكليزي-الهولندي، وأمام الأسطول الأمريكي في فترة قصيرة ... وقد تجول في البلاد الإسلامية فرأى ما عليه حال جيش المغرب الأقصى، وما عليه حال جيش مصر بقيادة إبراهيم باشا ... وعاش في زمن شهد الحروب النابليونية ومؤتمر فينا، فهل نستغرب منه بعد ذلك أن يكتب (السعي المحمود) داعيا إلى تجديد

الجيوش الإسلامية والاستعداد للجهاد الحق على غرار ما كان عليه الجهاد زمن الانتصارات الباهرة؟ (13).

ويستدرك الأستاذ سعد الله كل ذلك بالقول أن ابن العنابي قام بتأييد حججه بالآيات القرآنية والأحاديث وآراء المجتهدين من أئمة الإسلام الأوائل ليبرهن على أن دعوته نابعة من الكتاب والسنة والسلف وأنّها في صميم التقاليد الإسلامية، وهذا دليل على ذكاء وحنكة ونباهة ابن العنابي الذي كان خائفا من أن لا يقبل جمهور المسلمين أفكاره الجديدة التي طرحها في كتابه (السعي المحمود) لهذا ربطها بالكتاب والسنة .

كما توقف الأستاذ سعد الله عند جزئية أخرى صغيرة للحكم على أن ابن العنابي كان فعلا من دعاة التجديد وتتمثل هذه الجزئية في قوله أن ابن العنابي "حمل حملة كبيرة على من يسميهم تارة (بالزنادقة) وتارة (بالدراويش المتقشفة) فقد اعتبر عمل هؤلاء من أعظم ما أصاب الإسلام وأهله من الفساد والشر وقال أن الضرب على أيدي هؤلاء (من أعظم ما يتقرب به إلى الله) بل هو الجهاد الحقيقي، وحكم على ما يبدونه من الورع والصلاح بأنه محض مكر وخداع " (14) . ويقول سعد الله عن ابن العنابي بعد استعراض أهم ما قاله بشأن هؤلاء الدراويش أنه "في هذا يعد من الثوار على أهل الخرافة والشعوذة و الطرقية والمتاجرة بالدين في وقت مبكر نسبيا" (15).

كما أن الأستاذ سعد الله قد توقف عند العديد من الجزئيات الصغيرة المتعلقة بحياة الطبيب الرحالة عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري عندما ترجم له في الكتاب الذي عنونه بـ (الطبيب الرحالة -ابن حمادوش الجزائري- حياته وآثاره)، ومن أبرز هذه الجزئيات نذكر حكم الأستاذ سعد الله على أن والد ابن حمادوش لم يكن من أصحاب العلم، ولا حتى من أشباه العلماء، وذلك لأن ابن حمادوش عند الحديث عن والده كان يذكر اسمه مقرونا بوصف الحاج محمد أو السيد محمد فقط، والشيء نفسه عند حديثه عن عمه حيث يذكره مقرونا بوصف الحاج فقط، ويذكر الأستاذ سعد الله أيضا أن ابن حمادوش عندما افتخر أمام المفتي الحنفي ابن علي: "لم يفتخر بعلم أسرته ولا مكانتها الاجتماعية والسياسية وإنما أفتخر بشرفه ونسبته إلى آل علي بن أبي طالب كرم الله وجهه"(16).

ويذكر أيضا أنه بالرجوع إلى عقد زواج ابن حمادوش الأول نجد أن اسمه ذكر (عبد الرزاق بن حمادوش) مجردا عن كل ألقاب العلم سواء له أو لأهله ولقد جاء على

هذه الصيغة (المكرم الشاب عبد الرزاق بن الحاج محمد ابن حمادوش)، والسؤال المطروح هنا ماذا استنتج الأستاذ سعد الله من هذه الجزئية الصغيرة؟ إنه استنتج أن ابن حمادوش لم يكن ينتمي إلى أسرة علمية في ذلك الوقت على عكس الكثير من أقرانه ومعاصريه الذين كانوا يفتخرون بانتسابهم إلى أسر علمية معروفة ومشهورة.

ويتوقف عند الجملة التي جاءت في عقد زواجه الثاني وكان عمره حوالي ستا وأربعين سنة وهي "المكرم الأصل، الناسك الأبر الفقيه العالم النبيه السيد الحاج عبد الرزاق ابن السيد محمد ابن حمادوش) فيقول الأستاذ سعد الله معلقا على ذلك أن هذه الأوصاف قد نالها بعد أكثر من ثلاثين سنة من التحصيل العلمي والأسفار(17).

وفي دراسته المطولة عن الشاذلي القسنطيني توقف الأستاذ سعد الله عند العديد من الجزئيات التي لها معاني عميقة وأبعاد كبيرة في القضايا التي جاءت بشأنها تلك الجزئيات، مثل تعليق الشاذلي القسنطيني على اللغة الانكليزية الذي يقول فيه أن نبرات صوتها حادة تشبه زقزقة طائر (الزاوش) وهو ما علق عليه الأستاذ سعد الله بقوله "... ونحن لا نستغرب هذا الحكم من قاضي قسنطينة الذي لا يعرف اللغة الانكليزية، فالفرنسيون أنفسهم يسخرون من الكلام الانكليزي ويشبهونه بحديث من يضع حبة بطاطا ساخنة في فمه"(18).

### 4. الإكثار من التساؤلات لسبر أغوار الشخصية :

يطرح الأستاذ أبو القاسم سعد الله خلال دراسته وتحليله للشخصيات العلمية والسياسية والثقافية العديد من التساؤلات بشأنها، وهي تساؤلات دقيقة ومركزة الهدف منها هو التغلغل في دواخل الشخصية المدروسة وكذا محاولة فهم الظروف المختلفة المحيطة بالشخصية المعنية بالتحليل والدراسة، فمثلا في دراسته عن القاضي الأديب الشاذلي القسنطيني طرح العشرات من الأسئلة والتساؤلات، فعند حديثه عن علاقة الشاذلي القسنطيني بالأمير عبد القادر تساءل الأستاذ سعد الله كثيرا بشأن هذه العلاقة وأهم ما يمكن قوله بشأن هذه الأسئلة والتساؤلات أنه يمكن تحويلها إلى دراسات وأبحاث مستقلة عند توفر المادة البحثية الخاصة بالموضوعات المطروقة في هذه التساؤلات، حيث يقول مثلا: "وللمرء أن يتساءل عن تعلق الأمير بالشاذلي، وتعلق هذا بالأمير، هل كان الأمير يطلب الشاذلي بالذات لعلمه؟ وهل هو أعلم علماء الجزائر

عندئذ؟ طبعا لا، وهل كان يطلبه لدعايته وخفة ظله ورقة أدبه؟ وهل هو أكثر أدباء الجزائر حينئذ ظرفا ودعاية ولطفا؟ قد يكون ذلك وهل كان يطلبه لكثرة اطلاعه على أحوال الفرنسيين ومعرفته بأحوالهم، وليبرالية آرائه في الدين والسياسة؟ وهل الشاذلي هو الوحيد في ذلك بين الجزائريين؟ لا نعتقد ذلك" (19).

## 5. التدقيق والتمحيص

إن الأستاذ سعد الله جد حريص على التدقيق في الأحداث التي لها علاقة بالتواريخ، وذلك عن طريق المقارنة بالتواريخ الأخرى أو ربطها بأحداث معينة أخر وقعت، ولها علاقة بالتاريخ المراد ضبطه والتدقيق فيه ولقد وجدنا ذلك بارزا مثلا في عملية ضبطه لتاريخ مولد بعض الشخصيات فقد خصص مثلا صفحة كاملة تقريبا للتدقيق في تاريخ ميلاد الطبيب الرحالة ابن حمادوش.

وكمثال آخر على ذلك أيضا حديثه عن تاريخ تولي عائلة ابن الفقون إمارة ركب الحج، وحقيقتها ومتى كان ذلك في أكثر من موضع من كتابه عن عبد الكريم الفقون(20) .

والأستاذ سعد الله لم يركز على قضية التدقيق والتمحيص في التواريخ فقط، بل وجدناه يدقق حتى في كيفية كتابة بعض الأسماء التي ترجم لها فمثلا كتب صفحة كاملة في عملية ضبط اسم ابن حمادوش، وكذا في اللقب الملحق باسمه وهو الجزائري وذلك في الصفحتين 15 و16 من كتابه عنه.

## 6. التركيز على آراء ومواقف المترجم لهم

إن الأستاذ سعد الله حريص جدا في تراجمه على أن يشير هل لصاحب الترجمة آراء ومواقف خاصة به إن كان من أصحاب التآليف في ثنايا كتاباته، أم أنه يكتب فقط بالاعتماد على النقل، والذي يعرف الأستاذ سعد الله معرفة حقة يدرك مغزى هذه القضية، إذ أنه كان حريصا جدا على دفع طلبته إلى ضرورة إبراز شخصيتهم الخاصة بهم فيما يكتبوه، حتى تكون لهذه الكتابات سمة تميزها عن كتابات الآخرين، لهذا وجدناه في كتابه عن محمد بن العنابي يشير في أكثر من موضوع إلى هذه القضية، حيث كتب يقول عند استعراضه لكتاب (السعي المحمود في نظام الجنود) "... وإذا أراد هو أن يتدخل في الموضوع برأي فانه يستعمل له عبارة (قلت كذا) أو (قلت وهو الأوجه عندي)

ترجيحا لرأي دون آخر، وهو ينقل كثيرا من المؤلفين السابقين حول الموضوع كالطيرانيوالطرطوشي والغزالي، وينقل أيضا عن جده الأعلى وعن ابن عبد الحكم والوزير السراج (صاحب الحلل السندسية في الأخبار التونسية ...." (21) .

ويقول في موضع آخر من الكتاب "... ويكتفي في كل ذلك بالتقول ولا نكاد نظفر له برأي شخصي" ويقول أيضا "... وفي كل هذه الأمور يورد المؤلف الآيات والأحاديث والمواقف، ولكنه يقف عندها ولا يظهر هو فيها برأي أو تعليق" ويقول في مكان آخر من الكتاب "... وقد اعتمد في بعض أخبار هذا الفصل على رأي جده المذكور، كما اعتمد عليه في حديثه عن تعيين مواقف الجند، ولا تكاد شخصية ابن العنابي تظهر هنا أيضا، فالفصل كله عبارة عن مستخرجات من حافظته" ويقول أيضا "ويبدو أن شخصية المؤلف تظهر تدريجيا في كتابه وخاصة في حديثه عن التدريب على الأعمال الحربية، وعن الحصون والخنادق والأسلحة وعن حيل الحرب" **(أنظر الصفحات من 67-71 من كتاب رائد التجديد الإسلامي محمد بن العنابي).**

ولقد أبرز الأستاذ أبو القاسم سعد الله هذه القضية بشكل واضح أثناء ترجمته لعبد الكريم الفقون وتحديدا عند حديثه عن كتابه (منشور الهداية) الذي اعتبره الأستاذ سعد الله أفضل ما ألف عبد الكريم الفقون، بل أفضل الكتب المؤلفة في العهد العثماني في الجزائر على الإطلاق "فهو ليس كتاب تراجم بالمعنى المتعارف عليه لدى كتاب التراجم، وليس تخليدا لملك أو أمير أو باشا كما فعل بعض كتاب ذلك العصر، وليس كتابا في التصوف وأحوال الدراويش والانهزامية التي ألف فيها أيضا بعض مثقفي تلك الفترة، ولكنه كتاب في النقد الاجتماعي والنقد السياسي والنقد الديني، وهو أيضا كتاب عن أحوال الناس وزعمائهم السياسيين والمثقفين والدينيين، وعن علاقة هؤلاء جميعا بعضهم ببعض إنه وثيقة حية هامة عن حالة ذلك العصر، وهو يصلح أن يكون نموذجا لما كان شائعا في العالم الإسلامي كله عندئذ، لأن ما فيه من وصف الأحوال والعلاقات والأفكار ليس خاصا بالجزائر" (22) .

إن المستنتج من هذا الكلام أن شخصية عبد الكريم الفقون قد برزت بشكل واضح في هذا الكتاب وهو ما يؤكده أيضا الأستاذ سعد الله في موضع آخر من الكتاب حيث كتب يقول "إن الفكون لا يترجم للأشخاص بالطريقة المعتادة من ذكر الميلاد والوفاة والشيوخ والوظائف والتلاميذ والتأليف والكرامات والمناقب ونحو ذلك، انه لا

يتبع هذه الطريقة على الإطلاق بل أنه يتناول أحوال الأشخاص فيصفهم فيما كانوا عليه في نظره من الصلاح أو الطلاح، ويتحدث عن نشاطهم الاجتماعي وعلاقاتهم مع بعضهم ومع السلطة ومع الناس ويخبر عن عقائدهم وأطماعهم وتنافسهم في الخير والشر ... وقد اختلفت هذه الانطباعات طولا وقصرا وعمقا فبعض أحاديثه تطول وتتعمق حتى تصل عدة صفحات، وبعض أحاديثه تكون من القصر بحيث لا تتجاوز السطور، ولكنه مع ذلك يضع فيها من المعاني ما يكفي لمجلد .... وقد يصرح حتى كأنه يرمي هدفه بسهامه النارية، وقد يكتفي بالتجميع حتى كأنه يقول لنا عليكم بإكمال الباقي وفهم الواقع وربط الحالات ببعضها" (23) .

### 7. يترجم ... انطلاقا من قضية

يتخذ الأستاذ أبو القاسم سعد الله في بعض الأحيان من قضية تاريخية معينة مدخلا ومنطلقا لدراسة وتحليل شخصيته إذا ما كان لها علاقة وطيدة بالقضية المحددة، أو يعتبر هو البطل الأول فيها، فلكي يوضح هذه القضية التاريخية يقدم أولا كما هائلا من المعلومات التحليلية للشخصية المرتبطة بالقضية المطروحة للنقاش، ويواصل في استعراض أبرز مميزات ومواصفات الشخصية المعنية خلال تحليله للقضية المطروحة وذلك من خلال إبراز العلاقة بين العالم والقضية.

من أبرز الأمثلة على ذلك نذكر دراسته عن أبي راس الناصر التي شارك بها في (ندوة الجبرتي) التي انعقدت بالقاهرة في ربيع سنة 1974 والتي حاول فيها الربط بين هذا المؤرخ مع المؤرخ المصري الجبرتي فكان عنوانها (مؤرخ جزائري معاصر للجبرتي: أبو راس الناصر) اللذين عاشا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر والربع الأول من التاسع عشر فأبو رأس توفى سنة 1823 أما الجبرتي فقد توفى بعده بسنتين أي سنة 1825 ولهما كتابان يتشابهان في العنوان كتاب الأول عنوانه (عجائب الأسفار ولطائف الأخبار) أما كتاب الثاني فعنوانه (عجائب الآثار في التراجم والأخبار)، ولقد قام الأستاذ سعد الله بعقد مقارنه مختصره بين المؤرخين، لينتقل بعدها إلى التعريف بأبي رأس الناصر الذي يقول عنه أنه ولد في بيئة فقيرة وظل الفقر يطارده حتى قضى نحبه بعد عمر طويل، ولقد ختم الأستاذ سعد الله هذه الدراسة بالقول: "ولم يكن هدف هذه الدراسة عقد مقارنة بين الرجلين لأن المقارنة لن تكون ناجحة إلا اذا توفرت عناصرها وهي العثور على مؤلفات وآثار كل منهما ... ولعل الجزائريين يقتدون بالمصريين في العناية برجالهم

فيقيمون ندوة لأبي رأس كما أقام المصريون ندوة للجبرتي وعندئذ تكثر العناية بالرجلين وتتاح المقارنة بينهما" **(أنظر الدراسة كاملة في أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر ج1 ص، ص: 83-103)**.

ولقد وجدنا أبو القاسم سعد الله يعود في دراسة أخرى إلى الحديث عن أبي رأس الناصر بعد حوالي عشر سنوات وتحديد سنة 1984 بعد أن قام الأستاذ محمد بن عبد الكريم بتحقيق مخطوط (فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته) وإخراجه إلى النور، والذي يعلق عليه الأستاذ سعد الله بأنه "كتاب يقدم لنا حياة أبي رأس نفسه، فهو نوع من السيرة الذاتية، تحدث فيه المؤلف عن أهله وبيئته وشيوخه وعلومه وأسفاره ومن لقيهم من علماء المغرب والمشرق وما سئل عنه من المسائل العلمية وإجاباته على ذلك، وأخيرا بذكر مؤلفاته في كل نوع من فروع المعرفة الشائعة في وقته" **(أنظر هذه الدراسة الموسوعة-كتاب (فتح الإله) لأبي راس الناصر) ص، ص: 337-340 من أبحاث وآراء الجزء الثاني)**.

ويمكن لنا أن نذكر هنا أيضا كمثال آخر على قيام سعد الله باتخاذ قضية ما للتعريف بعالم من علماء الجزائر وشخصياتها، ذلك التعريف الوفي بالمفتى المالكي الكبابطي، حيث قدم لنا هذه الترجمة الواقعة في حوالي 36 صفحة بدءا من الصفحة 11 إلى الصفحة 48 في كتاب أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر الجزء الثاني وهي بعنوان (قضية ثقافية بين الجزائر وفرنسا سنة 1843، موقف المفتي الكبابطي من الأوقاف واللغة)، والقضية المقصودة هنا هي وقوف المفتي مصطفى الكبابطي ضد قرارين رسميين فرنسيين، الأول ضم الأوقاف الإسلامية إلى أملاك الدولة، والثاني إدخال اللغة الفرنسية في المدارس القرآنية، ولقد كتب الأستاذ سعد الله يقول "فلنتتبع إذن بشيء من التفصيل حياة المفتي الكبابطي ومن خلاله نلقي الضوء على هذه القضية الثقافية الهامة".

كما أنه كان كثيرا ما يقدم لنا تراجم لبعض علماء ومثقفي ومفكري الجزائر من خلال تحقيقه لبعض المخطوطات، وهو ما فعله مثلا في تحقيقه لمخطوطة في الشعر بعنوان (مختصرات مجهولة في الشعر العربي) حيث عرض لنا في تحقيقه لهذا المخطوط وإخراجه العديد من أعلام الجزائر خلال القرن 18م منهم صاحب المخطوط المفتي أحمد بن عمار وكذا الشاعر ابن علي ومحمد بن ميمون ومحمد القوجيلي ومحمد بن

رأس العين ومحمد سعيد الشباح وأحمد المانجلاتي. ونذكر هنا أنّ بعض هذه الشخصية كان قد ترجم لها بنوع من التفصيل في كتابه تاريخ الجزائر الثقافي.

كما عرفنا أيضا بصاحب أول رواية في الأدب العربي الحديث وهو الجزائري محمد بن إبراهيم من خلال تحقيقه "حكاية العشاق في الحب والاشتياق" داحضا بذلك ما كان، المشارقة يروجونه من أنّ صاحب أول رواية حديثة في الأدب العربي هو المصري محمد حسين هيكل صاحب رواية (زينب).

## 8. تصحيح بعض المفاهيم والمغالطات، وتوجيه الرسائل

إنّ الأستاذ أبو القاسم سعد الله من خلال اهتمامه الكبير بالترجمة للعشرات من علماء الجزائر وشخصياتها سعى إلى تصحيح بعض الأخطاء والمغالطات، ومن الأمثلة على ذلك تأكيده من خلال ترجمته لحياة ابن حادوش وذكر آثاره الكثيرة العلمية والأدبية وخاصة رحلته (لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال) التي يقول عنها "تعتبر الرحلة قطعة هامة من تراث الجزائر الوطني خلال القرن الثامن عشر ذلك أنّ الكتاب المغرضين كثيرا ما روجو بأنّ الجزائر في العهد العثماني لا تملك من هذا التراث إلاّ اليسير، والواقع أنّنا نجد مجموعة من الأعمال الجزائرية التي كتبت خلال القرن المذكور منها (التحفة المرضية) في سيرة الداي محمد بكداش، و(الثغر الجماني) في سيرة الباي محمد الكبير، و(نحلة اللبيب) في التشويق والاستعداد للحج إلى بيت الله الحرام، و(نزهة الأنظار) للورتلاني وهي رحلة حجازية.... " (24) .

ومن المغالطات التي سعى إلى تصحيحها أيضا من خلال دراسته لابن العنابي أنّ هذا الرجل يعد بحق رفقة معاصره حمدان خوجة من رواد التجديد والإصلاح السياسي والاجتماعي في العالم العربي الإسلامي:"والواقع بعد أن درست ابن العنابي تأكدت أنّه يحق للجزائر الحديثة أن تفتخر به وبأمثاله كحمدان خوجة الذين سبقوا علماء العربية والإسلام في طرح قضية التجديد والإصلاح الاجتماعي والسياسي قبل أن يصرحها أمثال الطهطاوي والأفغاني ومحمد عبده، فليس للجزائر أن تفتخر إلاّ بقائمة الشهداء الطويلة، لأنّ لها أيضا في قائمة العلماء والمثقفين مفخرة وأي مفخرة " (25) .
ونسجل هنا أنّ الأستاذ سعد الله كان كثيرا ما يقوم بتوجيه رسائل محددة المعنى من وراء ترجمته لهؤلاء العلماء وهذه الشخصيات، منها مثلا كيف يجب أن يكون المثقف الحقيقي، وهذا من خلال دراسته لحياة ابن حمادوش حيث يقول في مقدمة الكتاب

الذي خصصه لهذا العالم "أن قيمة المثقف اليوم تتجلى في مواقفه من قضايا عصره، وفي تمثله وإدراكه لكنّه هذه القضايا عصره، وفي تمثله وإدراكه لكنّه هذه القضايا وفي نظرته البعيدة غير المقيدة بالمكان والزمان والمصالح الشخصية الآنية والمثقف الحقيقي لا يرض أو يسترضى من أجل لقمة العيش أو الوصول إلى منصب أو جاه ولا يقدم قلمه قربانا لأصنام بالية مهما بلغت من الجبروت، وفي سيرة ابن حمادوش ما يدل على أنّه كان المثقف الواعي النزيه، أليس هو القائل (كان من فضل الله علي أن لم أجعل علمي سلما للدنيا. ولم أنل به شيئا، ولم أمدح أحدا لطمع...) وما أحوجنا إلى المثقف الحرّ الذي يسير في هذا الدرب ويتبنى هذا الموقف (26) .

**الهوامش**

1_ ابو القاسم سعد الله : القاضي الأديب الشاذلي القسنطيني ( دار الغرب الاسلامي ، بيروت ، لبنان 2005) ص 23 .

2 _ نفسه ص 24 .

3 _ نفسه ص 81 .

4_ ابو القاسم سعد الله : تاريخ العدواني ( دار الغرب الاسلامي ، بيروت ، لبنان ، (2005) ص 17 .

5 – ابو القاسم سعد الله : الشاذلي القسنطيني ، ص 39 .

6 _ ابو القاسم سعد الله : تاريخ العدواني ، ص 21 .

7 _ ابو القاسم سعد الله : رسالة الغريب الى الحبيب ( دار الغرب الاسلامي ، بيروت ، لبنان 2005 ) ص 5 .

8 – نفسه ، ص 5 – 6.

9 _ ابو القاسم سعد الله : محمد بن الغنابي ، رائد التجديد الاسلامي ( دار الغرب الاسلامي ، بيروت ، لبنان 2005 ) ص 7 .

10_ نفسه ، ص 28- 29 .

11_ نقسه ، ص 30 .

12_ نقسه ، ص40 .

13- نفسه ، ص 62 .

14_ نفسه ، ص 89- 90 .

15- نفسه ، ص 91 .

16_ ابو القاسم سعد الله : الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري ، ص 22 .

17- نفسه ، ص 2 .

18_ ابو القاسم سعد الله : القاضي الاديب ، ص 43 .

19_ نفسه ، ص 12 .

20_ أنظر الصفحات من 47 إلى 49 و الصفحات من 81 إلى 83 من كتابه ( شيخ الاسلام عبد الكريم الفقون ) .

21_ ابو القاسم سعد الله : محمد بن العنابي ، رائد التجديد الاسلامي ، ص 67 .

22_- ابو القاسم سعد الله : شيخ الاسلام عبد الكريم الفقون ، ص 167 .

23_ نفسه ، ص 172- 173 .

24- ابو القاسم سعد الله : الطبيب الرحالة ابن حمادوش ، ص 76 .

25_ ابو القاسم سعد الله : محمد بن العنابي ، رائد التجديد الاسلامي ، ص 17 .

26_ او القاسم سعد الله : الطبيب الرحالة ، ابن حمادوش ، ص 6- 7 .